﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨﴾

[النّحل: 58]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الذّرّيّةُ رِزقٌ مِنَ اللهِ يستوجبُ الشُّكرَ لا الكفرَ

لمّا ذكَرتِ الآيةُ السّابقةُ أنّهم جعلوا للّه البناتِ مع كراهتِهم لهُنّ ذَكَرَ في هذه الآية حالَهم إذا بُشِّرَ أحدُهم بما جعلوه للّه ربِّ العالمين مِن سواد وجوههم.

ومِنَ المناسبة أيضًا: أنّه لمّا ذَكَرَ في الآيات السّابقة تَصَرُّفَهم في أرزاق اللّه في أموالهم بالكُفرِ والشِّرك، ذَكَرَ هنا في تلك الآية مِثالًا آخرَ في حالِهم مع رِزقٍ آخَر، وهو رِزقُ الذُّرّيّة، فيكفرونَها أيضًا ولا يَشكرونها، بالتّشاؤُم منها ووَأدِها.

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُشِّرَ﴾: أصلُ البِشْرِ بالكسر: الطَّلاقَةُ والبشاشةُ وبَسطُ الوجهِ، ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصّافّات: 101][1]، واستبشرَ الرَّجُل: إذا وجَدَ ما يُبشِّرُه مِنَ الفَرَحِ، ويُقالُ للخَبَرِ السّارِّ: البِشارَة والبُشرَى، والجمعُ: بُشَر[2]، والبَشير: المُبَشِّر، وأصلُ البَشَرة بالفتح: انتشارٌ واسعٌ على ظاهر الشَّيءِ، كانتشار جِلد البَدنِ على ظاهرِه، وانتشارِ الشَّعرِ على الجِلْد[3]، والمقصودُ بالبُشرى في الآية: الخبرُ السّارُّ الّذي تنبسطُ به بَشَرةُ الوجهِ، فتتهَلَّلُ وتبرقُ أساريرُه[4]، أمّا المُرادُ بها فتُفيدُ تَعريضًا بالتَّهَكُّم بِهِم، إذ يَعُدّونَ البِشارَةَ مُصيبَةً؛ وذلكَ مِن تَحريفِهِمُ الحَقائِقَ[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر).
(2) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر).
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/ 129.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 184.

2) ﴿ظَلَّ﴾: أصلُ (ظلل) يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشيءٍ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغَيرِه، تَقولُ: أظَلَّتْنِي الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَلِيلٌ: دائِمُ الظِّلِّ[1]، ومِنَ البابِ قَولُهُم: ظَلَّ يَفْعَلُ كذا، وذلكَ إذا فعَلَهُ نَهارًا، وإنَّما قُلنا: إنَّهُ مِنَ البابِ؛ لأنَّ ذلكَ شَيءٌ يُخَصُّ به النَّهارُ، وذلكَ أنَّ الشَّيءَ يكونُ له ظِلٌّ نهارًا، ولا يُقالُ: ظَلَّ يَفعَلُ كذا ليلًا؛ لأنَّ اللَّيلَ نَفسَهُ ظِلٌّ[2]، وفِعلُ (ظَلَّ) مِن أفعالِ الكَونِ، أخَواتِ كانَ الَّتي تدُلُّ على اتِّصافِ فاعِلِها بحالَةٍ لازِمةٍ، ويُستعمَلُ بمَعنى (صارَ)، وهو المُرادُ هنا في الآية.

3) ﴿كَظِيمٌ﴾: (كظم): أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على معنًى واحِدٍ، وهو الإمساكُ والجمعُ للشَّيءِ. مِن ذلكَ الكَظمُ: وهو اجتِراعُ الغَيظِ والإمساكُ عن إبدائِهِ، وكأنَّهُ يَجمَعُهُ الكاظِمُ في جَوفِهِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: 134][3]، والكَظمُ أيضًا: مَخرَجُ النَّفَسِ، يُقالُ: أخَذَ بِكَظَمِهِ، والكُظومُ: احتِباسُ النَّفسِ، ويُعبَّرُ بِهِ عنِ السُّكوتِ، كقولهم: فلانٌ لا يتنفَّسُ: إذا وُصِفَ بالمبالغة في السُّكوت، وكُظِمَ فلانٌ: حُبِسَ نفسُه، قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: 48]، وكَظمُ الغَيظِ: حبسُهُ[4]، والمقصودُ بالكَظيمِ في الآيةِ: الغَضبانُ المَملوءُ حَنَقًا، والمُراد: أصبحَ حَنِقًا على امرأتِهِ[5].

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُصوِّرُ الحَقُّ سبحانَه حالةَ المُشركين في هذه الآية عندما يُبشَّرونَ بولادة الأنثى، وما كان مِن عاداتهم الجاهليّة المُنكَرَةِ، فيقول: وإذا أُخبِرَ أحدُ المُشرِكينَ - الَّذين يَجعَلونَ للهِ البَناتِ -

رغبةُ المُشركين عنِ الإناث تدفعُهم إلى سَواد وجوههم عند ولادتِهنّ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل)، والأزهري، تهذيب اللّغة: (ظلل).
(2) الخليل، العين: (ظل)، والأزهري، تهذيب اللّغة: (ظلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كظم).
(4) الرّاغب، المفردات: (كظم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 184.

بولادةِ بنتٍ له، صار وجهُهُ قاتمَ اللَّونِ، كأنَّما علاه السَّوادُ؛ غيظًا مِن شِدَّة الغَمِّ والحياءِ مِنَ النّاس، كأنَّما ارتكبَ ما يُخجِلُه، وقد امتلأ غمًّا وغَضَبًا وغَيظًا[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

### دلالةُ الواو في ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾:

متى كان الشّيءُ مَحلًّا للبُشرى به، كان حقيقًا بأن يُشتَهَى

تَعَدَّدَ المُرادُ بالواو في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾؛ فيجوز أن تكونَ عاطفةً، وتكونَ جملةُ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ معطوفةً على ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ للجمع بين حالِهم إذا حَصَلَ لهم ما يَشتهون مِن ولادة الذّكور، وحالِهم إذا حَصَلَ ما لا يُحبّون مِن ولادةِ الأنثى، ويجوزُ أن تكونَ للحال، وتكونَ الجملةُ حاليّةً بعد ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾، فيكون تعديدًا لأحوالِهم المُتباينةِ، إذا تباينَ نوعُ الوليدِ الّذي يُبَشّرون به، ويصحُّ أن تكونَ الواو استئنافيّةً، انتقالًا إلى فصلٍ آخرَ عجيبٍ في مجالِ كُفرِهم بنعمةِ اللّه، وهو اعتراضُهم على ولادة الأنثى، ورفضُهم لموهبةِ اللّهِ بها[2].

### سرُّ التّعبير بـ ﴿وَإِذَا﴾ دون (إن):

كمالُ البُشرى يكون بتَحَقُّقِها

صُدِّرَتْ جملةُ الشّرط بـ﴿وَإِذَا﴾ دونَ (إنْ) في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾؛ للدّلالة على تحقيق ما في حَيّزِه مِن جواب، وللدّلالة على كَثرةِ وقوعِ الشّرط[3]، فكلّما حَصَلَ لهم إعلامٌ بولادة أنثى حَصَلَ منهم اشمئزازٌ وتشاؤمٌ بها.

### دلالةُ التّعبير بالبِشارة:

الألفاظُ تعبيرٌ عنِ الانفعالات النّفسيّة

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالبِشارة في قوله: ﴿بُشِّرَ﴾، مع أنّ المَقامَ مَقامُ إعلانٍ؛ لأنّ التّعبيرَ بالبِشارة جَرى مَجرَى الحقيقةِ، فالبِشارةُ:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 255، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 116، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 578، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 443، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 97.

(2) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 7/ 203.

(3) ابن يعيش، شرح المفصّل: 113/ 5، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 1/ 173.

هي الإخبارُ بما تنفعِلُ له بَشَرةُ الإنسانِ بالتّغيُّر، سواء كان هذا التّغيُّرُ انقباضًا مِن حُزْن، أو انبساطًا مِن فرَح[1]؛ لذلك كان التّعبيرُ بالبِشارة للدّلالة على ظهور انفعالِهم بالحُزنِ مِنَ الخبر على ظاهر بَشَرتِهم ووجوهِهم، فتتغيَّر ظواهرُهم له، وإنِ اعتُبِرَ أنّ البِشارةَ حقيقةٌ غالبةٌ في الإخبار بما يَسُرُّ، فيكون التّعبيرُ بها هنا إشارةً إلى نفسِ الولادة، بقطع النّظرِ عنِ النّوع النّاتج، أو إشارةً إلى كونِ ولادةِ الأنثى في واقعها بُشْرَى سارّةً في ذاتها، بقطع النّظرِ عنهم[2]؛ لأنّ في ولادةِ الأُنثى تمامٌ للجنس، وتحقيقٌ للنّسل الّذي به زيادة النّوع، فضْلًا عن كونها موهبةَ اللّهِ الّتي هي رِزقٌ منه ونِعمَةٌ، كما قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ [الشّورى: 49]، فولادتُها هِبَةٌ في ذاتها، والهِبةُ ممّا يُفرِحُ ويَسُرُّ.

### بلاغةُ الكنايةِ في التّعبير بالبُشرى:

التّعبيرُ بالبُشرى في سياق ما يَسؤوهُم ويتشاءمون به في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ كنايةٌ عنِ التّعريضِ بهم على سبيل التّهكُّم والاستخفاف بعقولِهم، إذ يَعتبرون ما هو بُشْرى مُصيبةً[3]، وما هو نزولٌ بالنِّعمَة نازِلَةً بالنِّقمَة، فعَبَّرَ بالبُشرى إيماءً بتلك الكناية مِن باب: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21].

الجَهلُ بمِقدار النِّعمةِ كُفرٌ بها

### دلالةُ بناء الفعل ﴿بُشِّرَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

مجيءُ الفعلِ ﴿بُشِّرَ﴾ على صيغة ما لم يُسَمَّ فاعِلُه لإبهام المُبَشِّر (الفاعل)؛ لعدم تعلُّقِ الغرضِ في إظهاره، بل المُهِمُّ بيانُ رَدِّ فعلِ المُبَشَّرِ بولادة الأنثى، ولأنّ البِشارةَ تتعدَّدُ بحسبِ تعدُّدِ المُبشِّرين، فجاء على هذه الصّيغة إيجازًا بتقصير الكلام، وإسراعًا في الدّخول على الغرض، وهو المُبَشَّرُ في قوله: ﴿أَحَدُهُم﴾.

أُبهِمَ الفاعلُ لعدم تعلُّقِ الغرضِ في إظهاره

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بشر).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 407.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 301.

### دلالةُ التّعبير بقوله ﴿أَحَدُهُم﴾ دون (واحدٌ منهم):

الإيـجـازُ الـكـافي خيرٌ مِنَ الإطناب الوافي

لفظُ (أحد) فضلًا عن إفادتِه لعموم الجنسِ، فله خصوصيّةٌ في دلالتِه على الجمعيّة كدلالتِه على الفرديّة، فيتناولُ في معناه مَنْ يصلحُ للخطابِ واحِدًا كان أو مُثَنًّى أو مَجموعًا[1]، فإنّ المُبَشَّرَ (المولودَ له) قد يكونُ جماعةً مِنَ النّاس، فأوردَهُ ليتناولَ حالَ الاجتماعِ والافتراقِ والوَحدةِ في المَولود لهم، وأمّا (واحد) فهو دالٌّ على الذّات الواحدة دونَ المَجموع، فإنْ قِيلَ: (وإذا بُشِّر واحدٌ منهم بالأنثى) أوهَمَ الخصوصَ دونَ العُموم، فيُرادُ واحدٌ منهم دونَ الآخرين، وأيضًا: في تركيب ﴿أَحَدُهُم﴾ وجازةٌ وتقصيرٌ في الكلام، عن تركيب (واحد منهم)، وللدّلالة على أنّ حالَ الكفّارِ واحدةٌ عند البِشارة بالأنثى، فكان التّعبيرُ بـ﴿أَحَدُهُم﴾ لبيان أنّ الكفّارَ لم تتخلَّفْ هذه الحالة في أحدٍ منهم، بل صارت عنوانًا عليهم.

### سِرُّ التّعبير بالضّمير بدلًا مِنَ الظّاهر:

التّشاؤمُ من ولادة الأنثى كان عادةً جاهليّةً فاشيةً

لو قِيلَ: (وإذا بُشِّرَ أحدٌ مِنَ الرّجال) بالظّاهر بدلًا مِنَ الضّمير ﴿أَحَدُهُم﴾، لكان تركيبًا مُستَهجَنًا لفظًا ومعنًى، فمن جهة اللّفظ إطنابٌ لا حاجةَ له، إذِ التّقييدُ بالظّاهر ظاهرٌ لا يَخفى، فلا حاجةَ له، وأمّا من جهة المعنى فالإظهارُ تخصيصٌ غيرُ مُرادٍ، وعمومُ الإضمار مَقصودٌ؛ لأنّ التّشاؤمَ مِن ولادة الأُنثى كان عادةً فاشيةً لا تختصُّ بالرّجال فقط، فلو قال: (وإذا بُشِّرَ أحدٌ مِنَ الرّجال) لكان تخصيصًا لا مَساغ له.

### دلالةُ الباء في قوله ﴿بِٱلْأُنثَىٰ﴾:

وَصفُ القرآنُ ولادةَ الأُنثى بأنّها بُشرى وموهِبة

الباءُ في قوله: ﴿بِٱلْأُنثَىٰ﴾ للتّعدية، والتّركيبُ في قوله: ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ على حَذف مُضافٍ[2]، والتّقدير: (بُشِّر بولادةِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/ 157.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 184.

الأنثى)، وحَذفُ المُضافِ مِن مجاز الإسنادِ، بإسناد ما هو للمُضاف إلى المُضاف إليه.

### سِرُّ التّعبير بالإفراد في ﴿بِٱلْأُنثَىٰ﴾:

كراهيّةُ المُشركين لـولادة الأُنثى مُطلَقًا

عَبَّرَ بلفظ المُفردِ في قوله: ﴿بِٱلْأُنثَىٰ﴾ دون (الإناث)؛ لأنّ المُرادَ حقيقةُ الجنس، فيَدُلّ على المَفرد وعلى الجمع، وإنّما استبعدَ لفظَ الجمع في التّعبير؛ لأنّ الأصلَ الغالبَ في المولود أن يكونَ واحدًا لا جمعًا، ولأنّ الجمعَ يوهِمُ أنّهم يَكرهونَ ولادةَ الأُنثى إذا كانت أكثرَ مِن واحدةٍ، ولا يكرهونَها إذا كانت واحدةً.

### سِرُّ اختيارِ التّعبير بالفعل ﴿ظَلَّ﴾:

الكآبةُ والتّشاؤمُ يظهران للنّاس في وقت النّهار

﴿ظَلَّ﴾ مِن أخوات (كان)، فتدلُّ على الكونِ أو الحالِ اللّازمة[1]، وأصلُ معناها فيمَن أقامَ نهارًا على صفة الظِّلّ، وهي الاستِظلالُ فهو مُستَظِلٌّ، فهي تدلُّ على المُداومة على الفعل في النّهار، وسِرُّ التّعبير بـ﴿ظَلَّ﴾ دونَ أخواتها: لَمحُ الحالِ الغالبة، وهو أنّ أغلبَ الولادات تقعُ باللّيل، ويتأخَّرُ إخبارُ المولودِ له إلى النّهار، خصوصًا بالأنثى، فيستغرقُ ظُلولُهُ على حال الكآبة والتّشاؤم طولَ النّهارِ حتّى يزولَ ظِلُّه بغياب الشّمسِ ودخولِ اللّيل، والأحسنُ أن يُقالَ: لأنّ الكآبةَ والتّشاؤمَ يَظهرانِ للنّاس في وقت النّهار، ولذا خُصَّ ذِكرُ اغتمامِه بوقت النّهار المُعَبَّرِ عنه بـ﴿ظَلَّ﴾، وهذا أغلَبِيٌّ، والمُرادُ عُمومُ الأوقاتِ؛ لأنّ الحُزنَ الّذي ظَهَرَ في النّهار لا يزولُ بدخول اللّيل.

وأمّا مسألةُ تعليلِ وقوعِ أغلبِ الولاداتِ في أثناءِ اللّيل، وتأخُّرِ البُشرَى إلى النّهار، ففيه نظرٌ! لأنّه لا ينبني على استقراءٍ تامٍّ، والاستقراءُ النّاقصُ غيرُ مُفيدٍ، فمِن أين يُعلَمُ أنّ أغلبَ الولادات تقعُ باللّيل، ويتأخَّرُ الإخبارُ بها إلى وقت النّهار، فهذا أشبهُ بالتّخريص ورَجمِ الغيب[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 184.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 301.

وممّا يُؤكِّدُ ذلك أنّ التّعبيرَ بـ ﴿ظَلَّ﴾ يدلُّ على أنّ المُرادَ العُمومُ في النّهار وغيرِه؛ دلالةً على شُهرة هذا الوصف شُهرةَ ما يُشاهَدُ نهارًا[1].

### سِرُّ التّعبير بالماضي ﴿ظَلَّ﴾ دون المضارع:

التّشاؤمُ مِنَ الأنثى لا يتحقَّقُ به إلّا جاهلٌ

إنّما عَبَّرَ بـ﴿ظَلَّ﴾ بصيغة الماضي؛ للدّلالة على تحقُّقِه بحال الكآبةِ والحُزنِ مِن ولادة الأُنثى، ومعنى التّحقُّقِ المَذكور: تصويرُ أنّ هذا الانفعالَ السّلبيَّ ضِدّ الأنثى لاعتيادهم عليه، وإلْفِهم له، وجَريانِه عندَهم مَجرَى العُرفِ المُستقرِّ، صار مَبتوتًا فيه بالنّسبة لكلّ أحدٍ بُشِّرَ، ولا يخفى ما في صيغة الماضي في ﴿ظَلَّ﴾ مِن ائتلافٍ واطّرادٍ مع صيغة الماضي قبلَها في قوله: ﴿بُشِّرَ﴾.

### دلالةُ التّعبير بالوجه في ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾:

الوَجهُ مِرآةٌ للانفعالات النّفسيّة والقلبيّة

اصطفاءُ الوَجهِ مِن بين سائر الأعضاء؛ لأنّه مَحَلُّ انعكاسِ التّأثُّرِ والانفعال في البدن، فهو مَوضِعُ ظُهورِ أثرِ الشُّعورِ، فإنْ كان أثرُ الشّعورِ مَحمودًا استضاءَ الوجهُ واستنارَ، فيَبيَضُّ ويَتَفتَّحُ، وإنْ كان الشّعورُ مَقبوحًا بَهَتَ الوجهُ واستظلَمَ، فيسوَدُّ ويستغلِقُ.

### بلاغةُ الكنايةِ في قوله ﴿مُسْوَدًّا﴾:

سوءُ الأحوالِ يُسَوِّدُ الوجوهَ بالخَزايا

التّعبيرُ بقوله: ﴿مُسْوَدًّا﴾ كنايةٌ عنِ الغَمّ والكآبة، واستبدادِ التّشاؤم به[2]؛ لأنّه إذا اغتمَّ لَزِمَ عنه اسوِدادُ وجهه، ويَصِحُّ أن يكونَ مَجازًا مُرسَلًا، حيث أطلَقَ اللّازمَ (الاسوِداد)، وأرادَ المَلزومَ (الكآبة والأسى)، أو أطلقَ المُسبَّبَ (الاسوِداد)، وأرادَ السّببَ (الغمّ والكَبْت)، ويَصِحُّ أن يكونَ ﴿مُسْوَدًّا﴾ استعارةً تصريحيّةً، حيثُ شَبّه قلبَ الحَزينِ في انقباضِه واغتمامِه بوجهٍ أسود اللّون، بجامع غيابِ التّجلّي عن كلٍّ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 280.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 230.

### سِرُّ التّعبير باسم المفعول ﴿مُسْوَدًّا﴾ دون المَصدر:

كراهةُ ولادةِ الأُنثى عند الجاهليّين

عَبَّرَ باسم المفعول ﴿مُسْوَدًّا﴾ ليدُلَّ على طُروء الصّفة بفعلِ الفاعل الّذي أنتجَها، وهو التّبشيرُ بولادة الأُنثى، فكأنّما الإخبارُ بها سَوَّدَ وجهَهُ، ولولاه لم يكنْ أسودَ، ولذا لم يُعَبّرْ بالمصدر؛ لعدم ثُبوتِ الصّفة له إلّا بثبوت قيدِها، وقيدُها غيرُ ثابتٍ (وهو ولادة الأنثى)؛ لأنّه مُرتفِعٌ بتواريه هو مِنَ القوم، أو بتوريتِه الأنثى في التّراب.

### دلالةُ التّعبير بالاسميّة دون الفعليّة:

الصّفةُ أثبتُ وأشدُّ لموصوفها مِنَ الفعليّة

قال تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾، ولم يقُلْ: (ظَلَّ وجهُه يسودُّ)؛ للدّلالة على شِدّة اتّصافِه بالوصف، فإنّ الاسميّةَ (اسم المفعول) يدلُّ على أنّ الصّفةَ أثبتُ وأشَدُّ لموصوفها مِنَ الفعليّة، كذلك فإنّ ماصَدقَ الاسميّة هنا أكثرُ مِنَ الفعليّة، فإنّ ﴿مُسْوَدًّا﴾ يدلُّ على الحَدث والحُدوث والذّات، وأمّا (يسودّ) فيدلُّ على الحدوث الزّمنيِّ للوصف فقط.

وممّا يُذكَرُ في سِرّ التّعبير بالاسميّة: أنّ الحالةَ الحاصلةَ عند المُبَشَّرِ بالأنثى ليست حالةَ حُزنٍ عاديّة في نظرهم؛ بل هي قاصمة للظّهر في مَنطِقهم، وفي مثل هذه الحالة ترى الوجوهَ مِن شِدّة احتقان الدّمِ فيها سوداءَ، وهذا دليلٌ على أنّهم بلغوا أعلى درجات الحُزنِ عند بشارتهم بولادة الأنثى.

### سرُّ اختيار وصفِ الوجه بالسّواد دونَ الغَبَرَة:

السّوادُ أثرُ ظُلمةِ النّفس، والغَبَرةُ أثرُ الأهوالِ والمكدّرات

إنّما وُصِفَ الوجهُ بالسّواد دون الغَبَرَة؛ لأنّ الغَبرةَ وصفٌ يحصُلُ للوجهِ مِن خارج، وأمّا السّوادُ فهو وصفٌ يحصُلُ للوجه مِن داخل؛ أي: بسببٍ داخليٍّ في النّفسِ كالغمّ والحُزن[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غبر).

**مَوقِعُ جملة: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممّا قبلَها:**

جملة: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ حالٌ مِنَ الضّمير في ﴿ظَلَّ﴾، أو من ﴿وَجْهُهُۥ﴾، أو مِنَ الضّمير في ﴿مُسْوَدًّا﴾[1]، وتصديرُ الجملة بضمير الرّفع المُنفصِلِ زيادةٌ في التّعيين والتّأكيد، والختمُ بهذه الفاصلة للتّنبيه على إحاطة الغَمِّ به، داخلًا بالكَظم، وخارجًا باسوداد الوجهِ.

إحاطةُ الغَمّ بهم مِنَ الدّاخل والخارج

**نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿كَظِيمٌ﴾ مادّةً وصِيغةً:**

التّعبيرُ بالكظْم يدلُّ على معنى الإمساكِ والجَمعِ، فكأنّ الحزينَ الأسيفَ لولادة الأُنثى يتجرَّعُ الغيظَ والحُزنَ، فيُمسِكُ عن إبدائه، وكأنّ الكاظمَ يجمعُ ذلك في جوفه فيمتلِئُ به، فالمادّةُ تدورُ حول جمعِ الشّيءِ وحبسِه، والمنعِ مِن إظهاره، و﴿كَظِيمٌ﴾ صفةٌ مُشَبّهةٌ على وزن (فَعِيل)، إمّا بمعنى (فاعل) كـ(كاظِم)، كنحو قولِه: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: 134]، فهو كاظِمُ الحزنِ لا يُظهِرُه بين النّاس، وإمّا بمعنى (اسم المفعول) (مكظوم)، كنحو قوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: 48]؛ أي: كَظَمَه البشيرُ بالغَمِّ حين بشّرَهُ، أو كَظَمتْهُ امرأتُه بالكَمَدِ حين ولَدَتْ له، ووزانُ (فعيل) أبلغُ مِن (فاعل) و(مفعول)، ولذا لم يقُلْ: (كاظم) أو (مكظوم)؛ لدلالة (فعيل) على المعنيين، وإجراءُ اللّفظِ على المعنيين (الفاعل والمفعول) أبلغُ مِن إيرادِه بأحدِهما فقط، فدلالةُ (فعيل) أوسعُ، ولكون الوصف في (فعيل) أشدَّ منه في فاعل ومفعول، فمعنى الحدَثِ فيه أمكَن، فيدلُّ على أنّ الوصفَ صار كالشّيء الثّابت، أو كالطّبيعة والسّجيّة المُلازمة لصاحبها، (ففعيل) في الصّفة المُشبّهة تدلُّ على صفات النّفوس المُلازمةِ لها، سواء كان خِلْقَةً غريزيّةً، أم مُكتسَبةً صارت تُقارِبُ لِلُزومها الخِلْقةَ والسّجيّةَ، ويدلُّ أيضًا على أنّه مُتّصِفٌ به بالفعل،

يتفاوتُ عزمُ النّاسِ بحسب طاقتِهم في احتمال ما يَكرهون

(1) صافي، الجدول: 14/ 338.

بخلاف ما لو قال: كاظم أو مكظوم، فيحتمل أنّ اتّصافَه بذلك واقعٌ في الحال، أو سيقع في الاستقبال، وأنّه لم يكنْ مُتحقِّقًا به من قبلُ، فكانت صيغةُ (فعيل) أبلغَ لموافقة حالِه بالدّلالةِ على مُلازمتِه للحزْنِ أمَدًا طويلًا، ويصحُّ أن تكونَ ﴿كَظِيمٌ﴾ صيغةَ مبالغةٍ، لإرادة معنى الكثرة؛ أي: كثيرُ الكَظْم، وتكونَ الصّفةُ المُشَبّهةُ أدلَّ على الدّيمومة؛ أي: دائم الكَظم[1].

**نُكتةُ تنكير ﴿كَظِيمٌ﴾:**

تنكيرُ ﴿كَظِيمٌ﴾ لإبهام الوصفِ تهويلًا له، كأنّه قال: كظيمٌ مُنْطَوٍ على ما لا يُقادَرُ قَدْرُه، ولا يُحصَى عددُه مِن ألوان الكظم؛ لانكتامِه وعدمِ إظهارِه، فهو كظيمٌ لا يُحيطُ بمِقدار ألَمِه مَنْ هم حولَه.

(الـكَـظـيـم) لفظٌ يـدُلُّ على احتباسِ لِلهَمّ

**بلاغةُ الاستعارة:**

أصل: ﴿كَظِيمٌ﴾ من كظم القِربَةِ أو السِّقاء المَليءِ بالماء، بِشَدِّ حبْلٍ على فم السِّقاء، ليُربَطَ فلا يخرج منه الماءُ، أو من كَظم البعيرِ جِرَّتَه، والجِرَّة: ما يُخْرِجُه البعيرُ من بطنه ليَمضغَهُ ثمّ يبتلعَهُ فيردَّه إلى جوفِه، فيكظِمَه ولا يَلْفِظَه، وعليه: ففي الكلام استعارةٌ تصريحيّةٌ، حَذَفَ فيها المُشَبّهَ وصرّحَ بالمُشَبّه به، فشَبّهَ امتلاءَ قلبِ المولود له بالحُزن على حالِه، بامتلاءِ القُربة بالماء، وشبَّهَهُ في كَتمِه لذلك - خشيةَ الفضيحةِ - برابطٍ رُبِطَ على فم السِّقاء المَليءِ بالماء، حتَّى لا يخرجَ منها شيءٌ، وهذا هو معنى الكظم[2].

عـــدمُ الـرّضـا بأقدار الله يؤدّي إلـــى الـغُـمـوم والهُموم

**المتشابِهُ اللّفظيُّ:**

تشابهَت هذه الآية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الزّخرف: 17].

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 55 - 84.

(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (كظم)، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 39، وصافي، الجدول: 13/ 49.

والنّاظرُ في الآيتين يجدُ اختصاصَ كلِّ آيةٍ بما فيها مِنَ المُبَشَّرِ به؛ فآيةُ النّحل كان المُبَشَّرُ به الأُنثى؛ وذلك لأنّ هذه الآية يسبقُها قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ فلمّا كان ظاهرُ السّياق أن يُقالَ: (وإذا بشر أحدهم بالبنت) مراعاةً لما سَبَقَ، لكنّه عَدَلَ إلى التّعبير عنها بالأُنثى؛ للإمعان في إبراز صفةِ الأنوثة، لذلك كان التّعبيرُ فيها: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾، أمّا آيةُ الزّخرف فسبقَها قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزّخرف: 15]؛ فلمّا كان هؤلاء قد جعلوا الملائكةَ جزءًا منه يُشبهُه على زعمِهم، تعالى اللّه عمّا يقولون علوًّا كبيرًا، ناسبَ أن يكون التّعبيرُ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ [الزخرف: 17].

## ❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

### البُشْرى والنّبأ والخبر:

البُشْرى: أصلُها مأخوذٌ مِنَ البَشَرة، وهو ظاهرُ الجِلْد؛ لأنّ البُشرى أو البِشارةَ: الخَبَرُ السّارُّ الّذي تنبسِطُ له بَشَرَةُ الوجْه، ذلك أنّ النّفْسَ إذا سُرَّتْ انتشرَ الدَّمُ فيها انتشارَ الماءِ في الشّجَر، وقِيلَ: هو أوّلُ خبرٍ سارٍّ، فإذا توالتِ الأخبارُ بعدَه بنفس الشّيءِ، فهو خَبَرٌ وإعلامٌ، وليس بُشرى، وقِيلَ: البِشارةُ هي الخَبرُ الّذي تَتَغيَّرُ له البَشَرَةُ، وذلك يكون في الشّرِّ، كما يكون في الخير.

النّبأ: أصل (نبأ) الانتقالُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، وسُمّيتِ الأخبارُ المَحكيّةُ بالأنباء، لكونها تنتقلُ مِن جهةٍ إلى جهةٍ، والنّبأُ يُقالُ في الخبَر الّذي لا يعلمُه المُخْبَرُ، ولذا يَقتَصِرُ على الأخبارِ ذي الفائدة العظيمة؛ لأنّ الإخبارَ بما لا يعلمُه المُخاطَبُ، يُحدِثُ عندَه علمًا لم يكُنْ عندَه فيستفيد، ولكون (نبأ) يُقالُ في الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ، فلا يُتكلَّفُ الانتقالُ غالبًا إلّا في شأنٍ مُهمٍّ وعظيم.

وأمّا الخَبَرُ فهو العِلمُ بحقيقةِ الشّيء، وهو عامٌّ في جميع المعلوماتِ المَعلومةِ بالخَبَر، وهو أعمُّ مِنَ النّبأ في نفسِه، وفي جِهتِه (المُخبَر)، فقد يكونُ حقًّا وباطلًا، وقد يكونُ ذا فائدةٍ أو خاليًا منها، وقد يكونُ المُخبَرُ عالمًا بما يُخبَرُ به أو غيرَ عالمٍ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر - خبر - نبأ).

والبُشرَى على وجوهها الثّلاثة هي أخصُّ مِنَ الخَبَر ومِنَ النّبأ؛ لأنّها تختصُّ بما يَتَغيّرُ له وجهُ الإنسانِ وبَشَرَتُه، سواء كانت في الخير أو الشّرِّ، أو أكانت في المَسَرَّةِ خاصّة، ولذا عَبَّرَ هنا في الآية بـ ﴿بُشِّرَ﴾ دون (أُخْبِرَ) أو (نُبِّئَ)؛ للدّلالة على انفعالِه السّلبيِّ للخبَر، فيتغيّرُ له وجهُه وجِلدُه مِنَ التّشاؤم والانقباض.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
---
227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث
---
الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»